

كمال بلّاطه*

تجربتي في التصميم الفني لنصرة فلسطين**

باسم هذا الوطن
أو باسم ذاك الوطن
غريباً أنا عن هذا
وعن ذاك الوطن...

... وعرفتُ من جديد
ازدواج الردى والجمال

معلقة توفيق صايغ (١٩٦٣)

جانيت؟ مَنْ قال لك إنني في بيروت؟ كيف عرفتَ
أين أعيش؟
بعد أن جلس، أعلن بكل جدية أنه يراني
شريكاً ملائماً للانضمام إليه في تنظيم مسيرة
سلام من بيروت إلى القدس، وقال:

* فنان تشكيلي فلسطيني.
** هذه الشهادة كُتبت بالإنجليزية، وتستند في أجزاء
منها إلى ردود على مجموعة أسئلة طرحتها حسناء
مكداسي التي تقوم بتوثيق تأسيس "دار الفتى العربي"
في سنة ١٩٧٤. وهذه الدار هي دار نشر عمل فيها كاتب
هذه الشهادة كمدير القسم الفني، وكان من الأعضاء
المؤسسين للجنة تحريرها، وقد تأسست الدار بمبادرة
من مركز التخطيط الفلسطيني في بيروت.
ترجمة: ريم دبيات.

مشرد بين ليلة وضحاها

بين خريف سنة ١٩٦٦، وصيف سنة
١٩٦٧، كنت أعيش في الطبقة العلوية من
مبنى سكني يقع في شارع جان دارك في
بيروت. وما كان في إمكاني أن أدل أصدقائي
عليه، وهو الذي كان بلا اسم، إلا بتسميته مبنى
سايات نوبا، على اسم الشاعر الأرمني المتجول
الذي اتخذته مطعم في الطبقة الأرضية اسماً له.
صباح أحد أيام ذلك الصيف الرهيب، الذي
اكتشفت فيه أنني بت مشرداً بين ليلة وضحاها،
في إثر سقوط ما تبقي من فلسطين، سمعتُ نقرأ
خجولاً على بابي. فتحتة فرأيت وائل زعيتر، وهو
صديق قديم منذ أيام دراستي في روما، واقفاً
عند الباب من دون أن ينبس ببنت شفة، بادرت
قائلاً: ما الذي أتى بك إلى هنا؟ لماذا الآن؟ أين

لمواجهة حياتي في العالم الجديد، ومتابعة مسيرتي المهنية في عالم الرسم. انتقلت في سنة ١٩٦٩ إلى مدينة واشنطن حيث التحقت ببرنامج الدراسات العليا في مدرسة متحف كوركوران للفنون، وفي تلك السنة، وعبر الفرع المحلي لاتحاد الطلاب العرب الذي كنت رئيسه لفترة وجيزة، تكونت صداقتي مع وليد خذوري، وهو طالب دكتوراه عراقي في كلية الدراسات الدولية المتقدمة في جامعة جونز هوبكنز، كان يعيش في الحي نفسه الذي أعيش فيه في دائرة دويونت. ومن خلاله، تعرّفت إلى مجلة شهرية تدعى "فلسطين الحرة" (Free Palestine) التي أسسها عبد الوهاب الكيالي في لندن حيث كان يدرس.

نافذة في عالمي الجديد

اتفقت مع وليد على البدء بإصدار نسخة أميركية من "فلسطين الحرة"، وكانت الإصدارات الأولى نسخاً مطابقة للأعداد الصادرة في لندن. وخلال أشهر قليلة بات لدينا شهرتينا المستقلة التي حافظنا فيها على ترويسة إصدار لندن. كان وليد مسؤولاً، في كل إصدار جديد، عن توفير المواد التحريرية، وتأمين التمويل اللازم لتغطية تكاليف الطباعة، بينما توليت أنا مسؤولية جميع التفاصيل التقنية والبصرية. وفي غمرة انشغالي بالعمل، وتطور الأحداث السياسية في الوطن، لم أدِر قط أن التدريب على التصميم، وإعداد تصميمات جاهزة للتصوير من أجل الصحافة المطبوعة، سيشكلان بداية مهنة تطوعية كان من شأنها إعادة اتصالي مع الوطن، وإعادتي إلى التواصل مع فلسطين عبر بيروت.

في الوقت الذي حشدت الثورة الفلسطينية الدعم الشعبي في جميع أرجاء العالم العربي، كان عملي في "فلسطين الحرة" قد جعلني على اتصال مع مجموعة متفانية من طلاب الدراسات العليا والأكاديميين العرب. ومن الأسماء التي

خرج الشعب الهندي في مسيرات ضد جيوش الإمبراطورية البريطانية، وفي النهاية نالوا استقلالهم. لمَ لا نفعل الأمر عينه؟ ينضم إلينا اللاجئون منذ سنة ١٩٤٨ الذين شردوا مؤخراً مثلك ومثلي. يمكننا السير جميعاً وعبر جسر اللبني معاً. والعالم يراقب. دعمهم يتجروون على رمينا بالرصاص.

فكرت أن هذا عجيب، مثلما اعتاد وائل دائماً أن يكون. غير أن عوامل إضافية كانت في مصلحة اقتراح صديقي القديم، الذي لم يكن أمامي إلا القبول به. ففي ظل الحالة المرعبة التي كنت أعيشها في تلك الأيام، لم أكن أعرف أين سأذهب بعد أن علمت عن طريق الصليب الأحمر أنني ممنوع من العودة إلى القدس. وقد سمعت مؤخراً من طالب في الجامعة الأميركية في بيروت أن أحد أصدقائنا من القدس ألقى القبض عليه في شارع الحمراء، واقتيد إلى الحدود السورية لأن ليس لديه تأشيرة دخول صالحة إلى لبنان. وكانت صلاحية تأشيرة الزائر التي في حيازتي توشك أن تنتهي. لكن لم يلزم وقت طويل لنكتشف، أنا وائل، أنه لا يمكن للمسيرة أن ترى النور، لأن أياً من السلطات في بيروت، أو دمشق، أو عمان، لن تعطينا التصاريح اللازمة للقيام بها. ومن دون إعلان، اختفى وائل من بيروت. وبعد خمسة أعوام رأيت صورته، في صحيفة "واشنطن بوست"، ممدداً فاقد الحياة وسط بركة من الدماء. فقد تمكّن عملاء إسرائيليين في إحدى الليالي من اللحاق به وقتله في أثناء عودته إلى شقته في روما.

بعد أشهر من تقطّع السبل بي ما بين بيروت وبرمانا، والشويفات، تمكنت أخيراً من مغادرة لبنان بعد حصولي على منحة من بيندل هيل، مركز الكويكر للدراسة والتأمل في ولينغفورد، بنسلفانيا، حيث عشت عاماً من السلام والتفكير وسط مجتمع من الأصدقاء والناس المبدعين. ذلك العام ساعدني على تجاوز العواقب الشخصية للخسارة، بحيث أصبحت مستعداً

مجموعة من القصائد التي أنجزت لها سلسلة من الرسوم التخطيطية. وكان عبد الوهاب المسيري، الذي أنهى للتوأطروحة الدكتوراه، والذي كان في الوقت نفسه يعمل في مكتب جامعة الدول العربية في نيويورك، هو الذي يقوم بالترجمة إلى اللغة الإنجليزية.

بحلول منتصف سبعينيات القرن الماضي، ابتعدت عن الرسم واتجهت إلى إنتاج عدد كبير من الملصقات والنشرات الترويجية التي تحمل رسالة حركة "فتح" إلى العالم. وبعد أن طلب مني إبراهيم أبو لغد تصميم الشعار والكتاب السنوي لمؤتمر رابطة خريجي الجامعات الأميركية العرب، انتهى الأمر بي إلى تصميم شعارات العديد من المؤسسات العربية - الأميركية الأخرى التي كانت تتكاثر كالفطر في أنحاء الولايات المتحدة كافة. وخلال تلك الأيام التي سبقت عصر الكمبيوتر، كانت جميع مراحل التصميم والتخطيط يدوية.

لم تقتصر تجربتي في الرسم والنشر على العمل مع زملائي العرب. فمُنذ سنة ١٩٧١، عملت مع دوريات أصدرها مناضلون أميركيون متعددون، منها مجلة "دروب الحرية" (*Freedomways*) الأفرو - أميركية، وفصلية "تقرير الشرق الأوسط" (*Middle East Report*). عملي في الإصدار الخاص من "دروب الحرية" الذي كان مكرساً للثورة الفلسطينية، مع محررها جاك أوديل، الزعيم السابق في حركة الحقوق المدنية الأميركية، كان أول خطوة في نشوء صداقة تدوم مدى الحياة مع رجل عظيم. أما فيما يتعلق بمجلة "تقرير الشرق الأوسط"، التي قام بتحريرها مجموعة من التقدميين الأميركيين عقب رحلاتهم إلى الأردن وفلسطين، فقد عملت مع المحررين على ترسيخ المطبوعة عبر تصميمي لشعارهم، ورسمي تخطيطات يدوية للعديد من إصداراتهم. وحتى الوقت الراهن، لا تزال المجلة تستخدم الشعار الذي صممته، وكذلك تتبّع النموذج الذي أنشأته. جمعتُ خلال الفترة نفسها العديد من أسرطة

سرعان ما تتبادر إلى الذهن: حسن شريف من لبنان؛ ثرياً عبید من السعودية؛ عبد الوهاب المسيري من مصر. وكانت السعادة تغمرني لعملتي اليومي مع زملاء عرب، أنا الذي ترعرعت في القدس في الفترة التي كان جمال عبد الناصر الزعيم الأكثر شعبية في عالمنا، والذي أوصل الشعور القومي العربي إلى المستوى الدولي، عقب مشاركته في مؤتمر باندونغ في سنة ١٩٥٥. ومع الوقت، نشأت صداقة بيني وبين طلاب مناضلين من بلاد أخرى من العالم الثالث، وخصوصاً تشيلي، ونيكاراغوا، والسلفادور، وإيران. وكان يجمعنا النضال الذي كان ملتهباً على جبهات متعددة. وبفضل التحليلات السياسية التي قدّمها صديقي الإيراني، يونس بارسا بيناب، الذي كان طالب دكتوراه في جامعة هوارد، تمكنت من رؤية الثورة الإيرانية المقبلة. وكانت أولى الكلمات الفارسية التي تعلمتها هي "انقلاب تا بيروزي" (ثورة حتى النصر). ولن أنسى أبداً مدى تأثيري في وقت متأخر من إحدى الليالي برداً أحد الأصدقاء الإيرانيين، واسمه صادق قطب زاده، على نقطة أثرتُها بشأن كفاح الشعب الإيراني ضد حكم الشاه، إذ قال بالعربية بلهجة فارسية: "الزرع للزراع ولو كان غاصباً"، مبتسماً ابتسامته اللطيفة المعهودة.

شعرت في أثناء عملي في "فلسطين الحرة" كأني مع أهلي، وسط أشخاص غرباء وبلا وطن مثلي. تعلمت خلال العمل التفاصيل الدقيقة لتصميم المنشورات، والإجراءات التقنية، من التصور حتى المنتج النهائي. وبحلول سنة ١٩٧٠، صار في إمكاني تصميم وإنتاج "عاشق من فلسطين وقصائد أخرى" (*Lover from Palestine and Other Poems*) الذي يضم أشعاراً لمحمود درويش، وهو أول كتاب، على الإطلاق، لشاعر فلسطيني يُنشر في الولايات المتحدة الأميركية. وتحت شعار ما سَمّيناه "صحافة فلسطين الحرة" (*Free Palestine Press*)، التي كانت مطبوعة ثنائية اللغة، نُشرت

في الطبقة الأولى من مبنى مخصص للمكاتب في جادة كونتيكت، وقد سمّيناه "بيت فلسطين". ومن أجل إضفاء الحياة على فضاء الصالة الرئيسية العاري، فرشنا الأرضية بسجادة بدوية من قرية السّموع، ورسمت على ألواح زجاج النافذة المطلة على الشارع، أشكالاً هندسية مجردة بألوان أكليريك شفافة، وبشكل يحاكي الزجاج المعشق. وكان بين المحاضرين المحليين الذين دعوناهم أكاديميون فلسطينيون مثل إلياس شوفاني وهشام شرابي، ومناضلون أميركيون مثل جو ستورك، وجاك أوديل، كما دعونا ضيوفاً من الخارج، مثل صادق جلال العظم، ونبيل شعث.

في "بيت فلسطين"، كانت المرة الأولى التي ألتقي فيها نبيل شعث، الأكاديمي الفلسطيني الذي كان يدرّس إدارة الأعمال في الجامعة الأميركية في بيروت، فضلاً عن كونه رئيس مركز التخطيط الفلسطيني. ويجب أن يكون هذا اللقاء قد جرى في أواسط، أو في أواخر، صيف سنة ١٩٧٣. وقد أعجبت به كثيراً، وبروح الدعابة العالية في حديثه الذي كان يطعمه من حين إلى آخر باللهجة المصرية. وبعد معرفة نبيل بالأنشطة التي أقوم بها، حثني على الانتقال إلى بيروت لتولّي مهمّات المدير الفني في دار نشر كانت في قيد التأسيس، وفهمت أنها ستكون مكرسة لكتب الأطفال الفلسطينيين. وعندما كان يتحدث في هذا الأمر، كنت أفكر في أن مغادرة أميركا، والمشاركة في بناء مؤسسة فلسطينية مستقبلية في عاصمة عربية مثل بيروت، حيث طاب لي العيش في العام الذي سبق حرب إسرائيل الخاطفة في سنة ١٩٦٧، أمرٌ يشبه الحلم.

وافقت على العرض من دون أن أطرح أي سؤال إضافي. وقد أكد نبيل لي أنني سأتقاضى راتباً، وسأقطن شقة مريحة في بيروت، لكن في تلك الأيام، من كان يهتم بمثل هذه التفاصيل؟ فأبناء جيلي الذين ضحوا بحياتهم من أجل القضية لم يكونوا بالنسبة إليّ قضية مجردة، بل

الأغاني المستوحاة من الثورة الفلسطينية. وعند لقائي مع المغنية الشعبية الأميركية بربارا داين، صاحبة تسجيلات باريدون، اقترحت عليها إصدار تسجيل طويل، فأبدت سعادتها لإنتاجه، وسارعت إلى تصميم الغلاف، وكتابة مقدمة، كما ترجمت الأغاني من أجل إصدار كتيّب مرافق باللغتين، قمت أيضاً بتصميمه وتزويده بالرسوم التخطيطية التوضيحية.

بوابة على أرض الوطن

تخرّج وليد خدّوري في سنة ١٩٧٢ وغادر واشنطن، وعندها آلت مسؤولية تحرير "فلسطين الحرة" إلى إلياس شوفاني الذي كان يدرّس في جامعة ميريلاند، وكان قد ساهم في المجلة إلى ذلك الحين بالعديد من المقالات غير الموقّعة. وهكذا، استمرت الأعمال التي كلفت نفسي بها لنحو عامين آخرين، إلى أن قرر إلياس أن يعود إلى الاستقرار في بيروت. وبعد غياب هذا الرجل اللطيف، والصلب كالسمار، توقفت "فلسطين الحرة" عن الصدور تماماً.

في بدايات سنة ١٩٧٣، كنت ضمن مجموعة صغيرة من الطلاب الفلسطينيين الناشطين الذين ساعدوا في تأمين مكان نلتقي فيه معاً، ومع أصدقائنا. وصاحب الفكرة هو أنيس فوزي قاسم الذي كان طالب دكتوراه في القانون الدولي في جامعة جورج واشنطن، والذي صادف أن يكون سكنه عند طرف الشارع الذي كنت أقطن فيه. ومثلما كان سكني على مسافة قريبة من شقتي وليد وجاك، كذلك كان المكان الذي استأجرناه لحواراتنا السياسية ونشاطاتنا الاجتماعية. وقد ساهم فلسطينيون آخرون، جنباً إلى جنب مع أنيس، في القيام بهذا المشروع، وبينهم: نبيلة النشاشيبي، وهي طبيبة كانت تعمل في العاصمة؛ محمد شديد، طالب دراسات عليا في العلوم السياسية في جامعة جورج واشنطن؛ مي عبود، فلسطينية نشأت في لبنان وكانت تدرّس الرياضيات في جامعة محلية. ويقع ذلك المكان

انتقل إلى الاستقرار النهائي في بيروت، إذ كنت قد تقدمت بطلب الإقامة الدائمة في الولايات المتحدة، وكان لزاماً عليّ أن أكون في واشنطن للحصول على هذه الوثيقة المنقذة للحياة، نظراً إلى أن صلاحية جواز سفري الأردني كانت توشك أن تنتهي، وخصوصاً أن ما أثار مخاوفني كان تحذيراً تلقّيته من أحد الأصدقاء، وكان طالباً ناشطاً في حركة "فتح"، فقد أخبرني أن أحد زملائنا، الذي اعتُقل في عمان، سُئل عن علاقته بي. وهكذا خمنت أن لا إمكان لتجديد جواز سفري الأردني في ذلك الوقت.

اتفقت مع نبيل على أن أذهب إلى بيروت لستة أشهر من أجل إرساء أسس عملي المقبل، وأن أعود لفترة قصيرة إلى الولايات المتحدة، قبل الانتقال نهائياً إلى بيروت قبل نهاية سنة ١٩٧٤. كنت متحمساً جداً للعودة إلى بيروت التي بدا حينها أنها تحولت إلى ملقّي للفلسطينيين المقيمين في الولايات المتحدة، وكان بين الأصدقاء والزملاء الذين سبق أن ذهبوا إلى بيروت للعمل أو للدراسة: إلياس شوفاني؛ هشام شرابي؛ إبراهيم أبو لغد؛ سميح فرسون؛ إدوارد سعيد.

تعلم أصول العمل

فهمت من نبيل شعث أن لا شيء تم تحضيره حتى ذلك الحين في قسم الرسم، وأن عليّ بصفتي المدير الفني أن أبتّ في جميع المسائل، بدءاً من التفصيلات الفنية، وصولاً إلى المضامين التحريرية، ولهذا أردت تعلم كل ما يمكنني تعلمه فيما يتعلق بأدب الأطفال في أقصر وقت ممكن.

خلال الشهرين أو الثلاثة أشهر التالية، وبفضل جورج عطية الذي كان يرأس قسم الشرق الأدنى في مكتبة الكونغرس، قرأت واستعرضت كتباً مخصصة للأطفال، مع التركيز على كتب السود، والأفرو-آسيويين، والأوروبيين الشرقيين، والكوبيين، والأميركيين اللاتينيين.

إن قائمة أولئك الذين عرفتهم شخصياً عندما كنت أعيش في القدس، والذين حُطمت زهرة شبابهم، كانت تكبر يوماً بعد يوم: وليم نصار، زميل دراستي في مدرسة سان جورج (مدرسة المطران)، كان يقضي حكماً بالسجن المؤبد في سجن إسرائيلي، بسبب تنظييمه سلسلة من العمليات العسكرية ضد إسرائيل؛ علي طه، المرشد السياحي الوسيم الذي اعتاد أن يجول شوارع البلدة القديمة برفقة الحجاج والسياح القادمين لزيارة الأماكن المقدسة، والذي كنت غالباً ما ألتقيه مصادفة في مكتب سفريات فيكتور ماروم، لقي حتفه رمياً بالرصاص بعد أن قاد عملية اختطاف طائرة الخطوط الجوية سابينا. وخلال أقل من عامين، خسرت صديقين آخرين من أصدقاء القدس: هاني جوهريّة، مصور سينمائي، كان أقرب من أخ بالنسبة إليّ منذ أيام الصبا، وجورج عسل الذي كان المدافع عن الشعر العربي التقليدي، بينما كنت الداعم لشعر التفعيلة خلال مناقشاتنا في النادي العربي الأورثوذكسي في القدس. لقد قُتل هاني في أثناء قيامه بالتصوير عند خطوط الجبهة الأمامية في قرية عينطورة الجبلية اللبنانية، أما جورج، فسقط في قمم جبل صنين، خلال المعارك التي اندلعت عقب حصار مخيم تل الزعتر للاجئين. فكيف يمكنني أن أقارن أي مساهمة أقوم بها مع التضحيات الجسام التي قدّمها أصدقاء ورفاق آخرون لا نعرف أسماءهم، وظلت هوياتهم مستترة خلف الكوفية؟ لذلك كان تخصيص وقتي، وكل موهبة أمتلكها، أقل ما يمكنني فعله، وكان فرحة طرت بها مثل طفل صغير.

سألت نبيل، بما أنه لم يكن لدي أي خلفية مهنية في مجال أدب الأطفال، إن كان يستطيع أن يمهّني بضعة أشهر من أجل اتباع دورة مكثفة بشأن الشق التربوي والإنتاجي الخاص بكتب الأطفال. وطلبت منه معروفاً آخر، أن يدعني أعود مرة أخرى إلى الولايات المتحدة لفترة قصيرة بحلول خريف سنة ١٩٧٤، قبل أن

للأسف، لم ينشر مختار العاني أي شيء، لكن في النهاية كان هشام شرابي، زميل العاني في جامعة جورج تاون، والذي كان يطور نظريته الخاصة بشأن النظام الأبوي، هو من استفاد في شرح بعض من أفكار زميله المبتكرة، والتي اعتاد أن يطرحها هذا الأخير في لقاءاتنا على الغداء أيام الأحد، وفي أمسيات نهاية الأسبوع التي كنا نجتمع فيها للتسلية في بيوت العرب المقيمين في منطقة واشنطن.

في ذلك الوقت، عرفت من خلال أصدقائي الإيرانيين في واشنطن أن كتابات صمد بهرانجي التربوية تحتوي المخططات النظرية التي من شأنها خدمة مشروعنا الخاص بالأطفال كأفضل ما يكون. وكنت قد صممت غلاف الإصدار الأول باللغة الإنجليزية لرواية بهرانجي "السمة السوداء الصغيرة"، التي ترجمها صديق أميركي مع زوجته، ونشرها بعد عدة أعوام، صديقنا المشترك دونالد هيردك الذي حوّل مكتبه المطل على دائرة دوبرنت إلى ما بات يُعرف باسم "دار القارات الثلاث"، وهي دار نشر صغيرة مكرسة لأدب العالم الثالث.

حرصت على أن أجلب معي إلى بيروت نسخاً مصورة من جميع كتابات بهرانجي التي استطعت الوصول إليها بلغتها الفارسية الأصلية. وكنت أمل أن تترجم هي ورواياته التي منعها الرقابة الإيرانية في عهد الشاه. وبحلول نهاية سنة ١٩٧٣، كنت على استعداد تام للمغادرة والغرق في تأسيس القسم الفني في أول دار نشر مخصصة للأطفال الفلسطينيين.

إرساء الأسس

لم يكن في وسعي، خلال الأشهر الأولى التي قضيتها في بيروت، إلا أن أتذكر كلمات العاني في أثناء لقاءاتي برجال ونساء من مختلف المهن والتخصصات. وفي الأوقات التي كنت أبتعد فيها عن مشروع الأطفال، كنت أدون أفكاراً متفرقة استناداً إلى مشاهداتي، وقد جمعتها في

وخلال تلك الفترة، أبدى رئيس إحدى دور النشر الصغيرة المختصة بكتب الأطفال السود حماسة لا حدود لها لتطلعاتي المستقبلية، وتبعاً لنصائحه، سافرت إلى الساحل الشرقي للالتقاء بالمؤلفين والرسامين التوضيحيين، علاوة على التربويين العاملين في مجال أدب الأطفال. وأقنعتني الأبحاث المركزة التي أجريتها على مدى تلك الأشهر، بأن الدروس المنطقية التي عليّ تعلمها يجب أن تكون ما يمكن أن يعلمني إياه الأطفال الفلسطينيون أنفسهم، ولهذا كنت مصمماً على أن أختار مجموعة من هؤلاء الأطفال من مخيمات اللاجئين بمجرد وصولي إلى بيروت.

متأثراً بتقرير قرأته عن حقوق الطفل صدر في سنة ١٩٧٣، تنبّهت إلى مخاطر النظم التعليمية التقليدية، وأدركت إلى أي حد كانت تُنتهك حقوق الطفل العربي مقارنة بما كانت الحال عليه في المجتمعات المتطورة والغنية في أوروبا والولايات المتحدة. وبفضل مختار العاني، السوري، مدرّس اللغة العربية في جامعة جورج تاون، أحطت علماً بأحوال الطفل العربي أكثر ممّا كان يمكن أن أتعلمه من أي كتاب. والساعات الطويلة التي قضيتها برفقة هذا الرجل الألمعي، هي التي صقلت اهتمامي بالاضطهاد الذي تعانيه المرأة العربية. فبالنسبة إليه، هناك ارتباط وثيق بين اضطهاد المرأة وكيفية سلب الطفولة من أطفالنا، ورؤيته الراديكالية القريبة من الماوية استحضرت أفكاراً عن المرأة والأطفال العرب أثّرت فيّ بعمق، كما أن أفكاره الثورية عن المرأة العربية، مع ما تعلمته من الحركة النسوية الأميركية التي كانت مزدهرة في تلك الفترة، أثارت اهتمامي بتحرير وترجمة مختارات من الشعر الحديث لنساء عربيات. وهكذا صدر في سنة ١٩٧٨، عن دار Three Continents Press، كتاب المقتطفات بعنوان: *Women of the Fertile Crescent: An Anthology of Modern Poetry by Arab Women*

أو أن يملأ عليّ قصة من تأليفهما وأزينها أنا بالرسوم. وفي هذه الحالة، جال في خاطري أن يوضع على غلاف الكتاب اسم كل طفل مشارك فيه، وأنه سيتلقى مكافأة مالية، مثل المؤلفين البالغين، في مقابل العمل الذي توافق اللجنة على نشره.

لكن، بعد أول تقرير قدّمته إلى لجنة التحرير، يمكنني القول إن عدداً من أعضائها وجد اقتراحي غير جدير حتى بالمناقشة. وفي المقابل، كان أطفال المخيم الذين تصادقت معهم، متحمسين جداً لوجود أفاق للتعاون بيننا. ونظراً إلى الفترة الزمنية المحدودة التي كانت متاحة لي في بيروت، فإن أقصر السبل، بالنسبة إليّ، للوصول إلى قلوبهم، كان أن أتذكر نفسي عندما كنت طفلاً. وهكذا، في كل مرة كنت ألتقيهم، كنا ننتشي من الفرح الذي لا يقدر على بلوغه سوى الأطفال. ومن أوائل الأشخاص في بيروت الذين أدركوا على الفور معنى حماستي، كانت الشاعرة والرسامة إيتيل عدنان التي كنت قد التقيت بها قبل عدة أعوام في بيركلي في كاليفورنيا. وفي نيسان/أبريل من ذلك العام، كتبت صفحة كاملة عن الموضوع في الصحيفة الفرنسية اليومية "لوريان لو جور" (*l'Orient-Le Jour*).

عندما ترسخت علاقة الألفة تلك مع أطفال المخيم، انتقلت إلى مسائل عملية وتقنية أخرى، من أجل وضع أسس العمل التي سأتبعها لدى عودتي إلى بيروت، لكنني لم أدرك قط أن تلك الفترة التحضيرية ستكون الفترة الزمنية الوحيدة التي سأقضيها في هذا العمل.

الالتقاء بزملاء العمل

صباح اليوم التالي لوصولي إلى بيروت، أخذني أحدهم للقاء مدير دار النشر المحتملة. كان المكتب المكون من ٣ - ٤ غرف يقع في الطبقة العلوية من أحد مباني منطقة الجامعة العربية في بيروت، وهو المبنى نفسه الذي كان

نص هزلي عنوانته "منشور جنسياسي" نُشر مع رسوم في مجلة "مواقف". لكن الأهم هو أنه في أثناء إقامتي في بيروت ظل يدور في ذهني تصور مختار العاني عن مدى اعتبار الأطفال في مجتمعاتنا التقليدية "أشخاصاً ثانويين"، وتبدّى لي ذلك بطرق متعددة، وصار شاغلي الرئيسي هو كيف أكسر السلسلة، وكيف أساهم في إيجاد الوسائل الكفيلة بتمكين الأطفال. خلال الأسبوعين الأولين في بيروت، وجدت رفيقاً شاباً وودوداً وافق على اصطحابي لزيارة مخيمين للاجئين. ويقدر ما كان هادئاً، كان مدخناً شرهاً، وشخصاً مهذباً، وصاحب ابتسامة لطيفة. ومن خلال الحديث المقتضب الذي تبادلناه، وطريقة الترحيب به في المخيمين، فهمت أنه كان فدائياً في إحدى القواعد في الأردن.

تعرفت بفضل ذلك الشاب إلى العائلات في مخيمي برج البراجنة وضبية للاجئين. وفي زيارتي اللاحقة بمفردي لكل مخيم، التقيت بفتيان وفتيات من مختلف الأعمار، وتمكنت من الحديث معهم بحرية أكبر، ولا سيما في أثناء دروس الرسم التي أعطيتهم إياها في بيئتهم المنزلية. استندت في تلك الدروس إلى خبرتي التي اكتسبتها بعد تخرّجي من أكاديمية الفن في روما، إذ إنني كنت قد درّست التربية الفنية، لعام واحد، في كلية تدريب المعلمين التابعة للأونروا في الطيرة، قرب رام الله. وكان من طلابي يحيى يخلف الذي أصبح فيما بعد روائياً معروفاً، وكذلك موسى الجاعوني الذي أصبح مصمماً ناجحاً بعد استقراره في الولايات المتحدة.

لم ينقض وقت طويل حتى بدأت أتخيل كيف ستكون مجموعة مختارة من الفتيان والفتيات من كلا المخيمين أفضل فريق لاختبار صحة الأفكار خلال المراحل المتعددة لإعداد المشروع، فقد كانوا بالنسبة إليّ بمثابة هيئة تحرير خاصة مكونة من الأطفال. ومع الوقت، اخترت من الأطفال اثنين موهوبين فكرت في أن أطلب منهما محاولة تقديم رسوم توضيحية لقصة ما،

يضم مكاتب مركز التخطيط الفلسطيني.

اصطحبت معي خطة عمل مفصلة وضعتها
لنفسي لاتباعها خلال إقامتي، علاوة على قائمة
من الأسئلة، كما أحضرت معي رسماً أولياً
للشعار الذي صممته.

عرفت من لهجة المدير أنه مصري. وقد بدا،
نوعاً ما، رجلاً مترفاً سميناً ذا صلعة خفيفة.
كان يرتدي في ذلك اليوم، والأيام التالية التي
قابلته فيها، بدلة رسمية مع ربطة عنق، أو سترة
مع بنطال مكوي بعناية، وحذاء ملمعاً للغاية.
خلال اللقاء الأول، فوجئت بتجنبه الحديث عن
أي شيء له علاقة بعملتي أو مسؤولياتي. وفي كل
مرة كنت أحاول التطرق إلى الموضوع، كان يعيد
القول "استرخ، لا يزال لدينا كثير من الوقت من
أجل مناقشة التفصيلات." والأغرب من هذا
أيضاً، كان فضوله لسماع حديثي عن الحياة في
أميركا، ورخاء ناسها، ونمط معيشتهم.

الأمر الوحيد الذي أثاره بشأن عملي كان عن
الأثاث الذي قد يلزماني في المكتب، وأشار إلى
طاولة خشبية لامعة ضخمة، مع كرسي من
الجلد، وقال إنهما محجوزان لي. شكرته، وقلت
له إن عملاً كعملي لا يحتاج إلى مكتب، ولا أي
أثاث خاص، وأوضحت أنني خلال الأشهر الستة
الأولى، أتوقع أن يكون عملي بحثياً ميدانياً في
الهواء الطلق معظم الوقت، وأن أي عمل فني أو
تقني، أخطط للقيام به، يمكنني إتمامه بسهولة
في شقتي.

الشخصان الآخران اللذان التقيت بهما في
المكتب في يومي الأول، واللذان تعرفت إليهما
بشكل أفضل لاحقاً، هما السكرتيرة، والشاب
المسؤول عن إعداد القهوة، وتنظيف المكتب،
إضافة إلى كونه المراسل. وعرفت فيما بعد أن
هذا الشاب الفلسطيني الذي قُدم إليّ بمزاح على
أنه "بتاع كله"، كان في الواقع مقاتلاً. كان
صادماً بالنسبة إليّ، خلال أول أسبوع لي في
بيروت، أن ألتقي مقاتلاً فلسطينياً وقد تحوّل إلى
فَراش. لم أستطع تخيل أن يقوم هذا الشاب
بالتنظيف ورائي، أو أن أشرب القهوة التي

يخمرها في تلك الفتحة في الجدار التي خُصصت
له ولأدوات التنظيف التي يستخدمها. كما كنت
أشعر بالحرج في كل مرة أرى فيها السكرتيرة،
وكانت خريجة جامعية حساسة وذكية، وكانت
حينها حاملاً، وقد اقتصر عملها على تقديم
القهوة إلى المدير في أثناء إضاعته الوقت في
التسلية مع ضيوفه. وفي الأشهر التالية، أصبحت
هذه السيدة الرائعة، نبيلة برير، صديقتي المقربة
في ذلك المكتب.

لم أعد أتردد إلى المكتب، بعد المرات القليلة
الأولى، إلا في المناسبات الخاصة، حين يكون
لديّ موعد، أو يكون هناك اجتماع للجنة
التحرير. كانت اللجنة مكونة من خمسة أو ستة
أشخاص، وكان بينهم الباحث الأدبي الرائد
إحسان عباس الذي كنت مطلعاً على كتاباته.
وكان نبيل شعث يزورنا أحياناً برفقة صديق
مصري يدعى محبوب. كان يحزنني غياب
العنصر النسائي عن اجتماعاتنا تلك، وعندما
أشرت إلى ذلك في إحدى المرات، حوّل أحد
الموجودين كلامي إلى نكتة.

كانت اجتماعات اللجنة تُعقد، بشكل رئيسي،
من أجل مناقشة القصص التي كانت تصلنا
بشكل دوري، فكنت أغتني الفرصة لأخبر
أعضاءها بالتقدم الذي أحرزه في بحثي. وفي
الوقت نفسه، واصلت قضاء معظم وقتي في
مقابلة الفنانين والكتّاب المحليين الذين قد
يكونون شركاء محتملين، وزيارة أطفال المخيم،
والتحقق من التسهيلات التي تقدّمها المطابع
المتعددة في المدينة، والتعرّف إلى عيّات الورق
ذات النوعية الجيدة المتوفرة، وإلى أوزانها
وأبعادها المتنوعة. وعند عودتي إلى شقتي، كنت
أقصّ عيّنات الورق التي كنت أجمعها من
مورّدي الورق المحليين، وأشكّل منها نماذج
بالحجم الطبيعي لمساعدتي على تصور هيئة
الكتاب.

عرضت، فيما بعد، معظم مخططاتي الأولية،
والنماذج البصرية التي توضح كيف سيكون
شكل النص في الصفحة، على لجنة التحرير من

بمشروع فلسطيني في بيروت، فقد ترك عائلته خلفه. وبعد أن تركنا لبعض الوقت بمفردنا للحديث براحة أكبر، عاد المدير إلى المكتب، ووقف اللباد احتراماً له. كنت مصدوماً بعض الشيء من القيام بهذا السلوك بين الزملاء. أما المدير فتغاضى عن تلك الحركة. ومنذ ذلك الحين، في كل مرة أمر فيها من دون موعد على المكتب، كنت أجد اللباد جالساً خلف مكثبي يرتب بإخلاص الأقلام الملونة. وكان يحرجني ببقائه واقفاً لتحيتي إلى أن أرجوه أن يجلس. شعرت بالاستياء لعدم توجيه الدعوة إلى اللباد لحضور اجتماعات لجنة التحرير. ففي النهاية كنت أدرك غريزياً أن اللباد، نظراً إلى كونه رساماً توضيحياً خبيراً، قادر على المساهمة في بعض الأفكار العملية التي من شأنها دعم حججي أمام أعضاء اللجنة الذين لم يدركوا أهمية هذا النوع من العمل الذي كان يستحوذ على اهتمامي كله، من أجل خلق طابع مميز لدار نشر للأطفال. ومع أن أياً منا لم يكن خبيراً في أي مجال من المجالات المتعلقة بالأطفال، إلا إن البعض تصرفوا، للأسف، كما لو أن لهم الكلمة الفصل في هذا الشأن. أما بالنسبة إلى أولئك الذين ظهر أنهم يديرون هذا المشروع، فقد برز اثنان: نبيل شعث، وصديقه المصري محجوب الذي فهمت أنه كان طبيباً في الأساس، لكنه أدى دوراً عسكرياً مهماً في الأردن، قبل أن تطرد قواتنا من هناك. وكان الجميع يخاطبونه دكتور محجوب. كان نبيل الأكاديمي البراغماتي، والإداري العملي الألمعي الذي كان عارفاً بجميع جوانب المشروع الاقتصادية، وفي المقابل، ظهر أن محجوب، الذي كان فعلياً مثل اسمه "محجوباً"، هو المنظّر والمخطط الاستراتيجي للمشروع. كان محجوب، مثل نبيل، متحدثاً بارعاً، يوشّي حديثه من دون توقف بالأقوال والحكايات الطريفة، لكن بالنسبة إلى رأيه في المشروع، فقد وجدت أن نمط تفكيره التربوي عقائدي جداً، وربما لهذا السبب شعرت بأني لا

أجل مناقشتها. ومع معرفتي أن اقتراحاتي ستحظى بموافقة جماعية، كنت منفتحاً على المساهمات البناءة بقدر ما كنت مستعداً للدفاع عن أي قرار أكون قد اتخذته. تمت الموافقة على بعض مقترحاتي، ورُفض بعضها الآخر، ولم يكن لديّ مشكلة مع أي من ذلك. في إحدى المرات، وكان موعد عودتي إلى واشنطن قد اقترب، دخلت إلى مكثبي فوجدت رجلاً أصلع نحيلاً، يضع نظارات سميكة، وذا لحية صغيرة على الذقن، يجلس خلف "مكثبي". بدا مندهشاً بعض الشيء وهو يقف باحترام، وقدمه المدير إليّ باسم محيي الدين اللباد. كنت سعيداً جداً بلاقائه، وخصوصاً بعدما قيل لي إنه يرسم رسوماً توضيحية لمنشورات الأطفال في مصر. ورأيت فيه شريكاً ممكناً قد يخفف الحمل الذي وضعته على نفسي خلال تلك الفترة التحضيرية.

بعد أن شكرت المدير على اصطحابه اللباد إلى المكتب، سألتني الأخير الذي ظل واقفاً طوال الوقت، إن كان يزعجني أنه استخدم مكثبي. أخبرته أن هذا لا يزعجني على الإطلاق، ورجوته أن يجلس كي نتابع حديثنا. فجلسنا وحدثني عن تجربته المهنية، وأخبرته بدوري عما أنجزته حتى ذلك الحين في مجال عملي. وبدا لي أنه موافق ومستعد جداً للمساعدة في أي شيء قد أطلب منه القيام به. ومثل الرسامين التوضيحيين المرجحين الآخرين الذين كنت ألتقيهم، سألته إن كان يستطيع أن يريني أي شيء موجود في كراسة الرسم التي رأيته على المكتب. أحببت ما رأيته، وأخبرته ذلك، وأعلمت المدير أنني أراه ملائماً لإنجاز رسوم واحدة من القصص التي تمت الموافقة عليها، اعتماداً على النموذج بالحجم الطبيعي الذي عملته.

ظهر خلال الحديث الذي استمر طويلاً أن اللباد كان مشرداً مثلي، غير أن وضعه كان أشد مأسوياً، إذ ترك زوجة وأطفالاً في مصر، أما أنا فكنت متشرداً عازباً. لقد أدركت حجم التضحية التي كان عليه القيام بها من أجل الالتحاق

خارج لبنان، فتواصلت معهم نبيلة، أو أعضاء آخرون من اللجنة.

خلال فترة إقامتي في بيروت، واصلت البحث عن أفضل الوسائل العملية والجمالية القادرة على المزاوجة ما بين نص مقروء ورسم توضيحي جذاب على صفحات متقابلة، بشكل يكون قادراً على تأجيح مخيلة الطفل، ذلك بأن الحقلين يجب أن يتكاملا أحدهما مع الآخر، بحيث يصبح الشكل والمضمون بنية واحدة.

كانت إحدى القصص ذات طابع إرشادي قرّم جميع أبعاد العلاقة المتكاملة ما بين الشكل الجمالي والمحتوى ذي المغزى، وقد قدّمها أحد أعضاء لجنة التحرير من العاملين في مركز التخطيط. كانت القصة عن فتاة صغيرة تعيش في مخيم للاجئين، ولم يكن في قدرة أهلها شراء دمية لها. وفي أحد الأيام التقطت الفتاة دمية ملقاة على الأرض، وكانت مفخخة، وقد ألقتها طائرة إسرائيلية. وبالنسبة انفجرت الدمية، وفقدت الفتاة ذراعيها. لاقت القصة ترحيباً من بعض أعضاء اللجنة، أما بالنسبة إليّ، وكنت الوحيد، فقد أقسمت أنها لن تمر إلّا على جثتي.

عندما أعربت عن اعتراضي على القصة، شرح أحد أعضاء اللجنة للأجنبي القادم من أميركا أن القصة مستوحاة من حادثة حقيقية، وأنها قدّمت درساً مفيداً لأطفالنا فحواه أن يكونوا أكثر حذراً، ويتجنبوا الألغام الإسرائيلية. لم أشأ التعليق على الموضوع الجنساني الذي يربط الفتيات بالدمى. وبدلاً من ذلك قلت إن الشفقة على فتاة لأن أهلها لم يقدروا على شراء دمية لها، أمر لا مكان له في تربية الطفل، لأن فيه إهانة. وثانياً، على المرء ألا يكتب قصة رعب من أجل تجنّب تعرّض أطفالنا للتشوه بسبب الألغام الإسرائيلية، بل عليه أن يكتب تعليمات واضحة وينشرها في ملصقات مصورة، وفي وسائل الإعلام في المدارس، وفي جلسات حيّة مع موجه تربوي. وثالثاً، وهذا هو الأكثر أهمية، يجب عدم زرع الخوف في نفوس أطفالنا، ففضول الأطفال ثروة، وعلينا تشجيعه لا قمعه. وأشارت إلى أن

أتلاءم مع قالب الذي أعدّه لي بشكل مسبق. ومع ذلك كنت سعيداً لأن قصته المجازية التي قدّمها إلى لجنة التحرير في أحد اجتماعاتنا السابقة، حظيت بترحيب حار من جميع الأعضاء الذين وجدوا أنها من أقوى القصص التي وصلتنا. فباستخدام مفردات الغابة من أجل الإيضاح في القصة، عرض محجوب بالمجاز للأطفال تكتيكات حرب الشوارع التي تمكنت بواسطتها مجموعة موحدة متضامنة من الطيور من التغلب على وحش جامح.

ولسوء الحظ، لم تسنح لي الفرصة كي أناقش مع نبيل أو محجوب، معاً أو كل بمفرده، طبيعة العمل الذي أقوم به، ولم يُتاح لي أن أكون مع نبيل وأقدّم له لمحة عن عملي الذي هو في قيد الإنجاز، أو أناقش أي أمر طارئ متعلق بالمشروع، إلّا في المرات التي قفزت فيها إلى المقعد الأمامي لسيارته، ورافقته وهو يقودها بسرعة كبيرة من مكان إلى آخر في بيروت. أما بالنسبة إلى محجوب الذي كان يتمتع بقدرته اللافتة على مواصلة النقاش من دون توقف، إذ كلما كنت أصادفه في المكتب أو خارجه، كنت أجد حديثه إمّا في غاية الأهمية، وإمّا مزاحاً. لم يكن يترك فرصة لأي لحظة صمت، وكان الجميع من حوله مأخوذين ومعجبين للغاية بأسلوب حديثه، وكانوا يشيدون بتفانيه في خدمة القضية الفلسطينية. ولم أستطع في عدة مرات حتى من الابتسام لفيض الأمثال والحكايات التي يرويها، إذ بدا لي أنها طريقته الخاصة بعدم إعطاء أي محاور محتمل الفرصة للحديث.

اختيار القصص

قبل وصولي إلى بيروت، كان هناك بعض القصص التي تم تقديمها، ووصل عدد ما تجمّع منها إلى ١٠٠ تقريباً، وغالباً ما كان هناك أكثر من قصة لكل كاتب من المتقدمين. وخلال فترة إقامتي تواصلت مع عدد من الكتّاب العرب الذين كانوا يقيمون في بيروت، أمّا الكتّاب المقيمون

الأفق، وحملته بإحكام بكتلتا يديها في حضنها، كما لو أنه لعبة خيالية. أصبحت عينا الفتاة الآن مغمضتين، مع ابتسامة كبيرة تشع على وجهها. رأيت أن هذه القصة الساحرة نقلت بصمت رسالة حب عبر المسافة، وشعوراً لا يصعب التعبير عنه بقلم الرصاص، بل إنه يعالج جوهر التجربة الفلسطينية أيضاً. لقد ذكرتني بتلك الرسائل اليومية المحملة بالعواطف التي اعتدت سماعها في الإذاعة، والتي كان اللاجئون الفلسطينيون في المنطقة يرسلون من خلالها أخبار عائلاتهم إلى أحبائهم.

وجد بعض أعضاء لجنة التحرير أن تسلسل رسوم الطفلة كان ضعيف التعبير، ورأى آخرون أن قصتها خالية من المعنى. فقلت لهم إنه يشرفني أن أنسخ تلك القصة الصامتة، وأحسنها بالتلوين، ما دام اسم الفتاة سيظهر على الغلاف، وما دامت ستمنح مكافأة مالية لقاء عملها. ولسوء الحظ، لم أتمكن من رؤية إن كانت توصيتي قد نُفذت، وإن كان اسم الفتاة، ككاتبة للقصة، قد تم التعريف به، أو حتى إن كانت تلقت مقابلاً مالياً أم لا.

تعيين رسامين توضيحيين للكتب

كانت الكتابة للأطفال باللغة العربية صنفًا نادرًا خلال النصف الأول من القرن العشرين. وبصرف النظر عن المنشورات الشحيحة التي كانت تصدرها بعض وزارات التربية، والترجمات العرضية لقصص الأطفال من الأدب العالمي، والتي غامر عدد قليل من الناشئين المستقلين بطباعتها، فإنه بالكاد نُشرت كتابات أصلية للأطفال. وبحلول سبعينيات القرن الماضي، لم تكن الثقافة العربية قد أنتجت بعد كتابًا متخصصين بكتب الأطفال قادرين على كسر نمط كامل كيلاني.

كان العالم العربي حينها يفتقر أيضاً إلى الرسامين التوضيحيين المحترفين. وكانت منشورات مصر، التي كانت البلد العربي الرئيسي

خطورة القصة الفعلية هي أنها قتلت كل إحساس بالفضول عند الطفل. وكى أجعل اعتراضى ملموساً، سألتهم إن كانوا يستطيعون تصور مدى بشاعة صورة توضيحية أخيرة في كتاب أطفال تظهر فتاة قُطعت كلتا ذراعيها.

بعد جدال طويل، اقترح أحدهم تغيير النهاية. وفي اجتماعنا التالي، علمت أن نهاية القصة تغيرت على نحو رأيت أنه أسوأ من قبل، فبدلاً من معاقبة الفتاة بفقد ذراعيها الاثنتين، قطعوا واحدة منهما فقط. وأظهر المشهد الأخير كيف أن الفتاة استفاقت في المستشفى لتجد فداًياً يتمشى في غرفتها حاملاً دمية كبيرة في إحدى ذراعيها، وكلاشينكوفاً في الأخرى، وكيف مدّت الفتاة ذراعها الوحيدة، لا لتجذب الدمية، وإنما الرشاش.

خلال ما تبقى لي من وقت في بيروت، تأكدت أن نبيلة برير نحت تلك القصة جانباً، ولا أعرف إن كانت نُشرت فيما بعد.

في اجتماع آخر من اجتماعاتنا التحريرية، أوصيت بشدة بقصة خالية من الكلمات، ومؤلفة من سلسلة من رسوم بقلم الرصاص، كل واحدة منها مؤطرة بخط، كما في الرسوم الهزلية. تلك السلسلة رسمتها فتاة على جانبي ورقة واحدة أحضرتها معي إلى الاجتماع.

في القسم العلوي من الرسم الأول، نرى قارباً كبيراً طافياً في الأفق، وفي القسم السفلي، نرى رسماً مصغراً لفتاة بجديلة ذيل حصان واقفة على شاطئ البحر، وهي تدير ظهرها لنا مثلما اعتاد ناجي العلي أن يرسم شخصية حنظلة الحافي القدمين. في الرسومات التالية، نرى القارب في الأفق يتقلص حجماً، في حين أن رسم الفتاة التي لا تزال تعطينا ظهرها، يكبر بالنسبة نفسها. وفيما بعد، تدير الفتاة وجهها وتمنحنا غمزة مبالغ فيها. وفي الإطار التالي تملأ صورة الفتاة كامل المشهد الأمامي، ويتضاءل حجم القارب كثيراً في البعيد. وفي الرسم الأخير، يبدو الأفق خالياً، وتصبح الفتاة وجهاً لوجه معنا. لقد التقطت القارب الصغير من

الذي تزدهر فيه أعمال النشر، تتوزع على نطاق واسع، ففي مصر أحرز عدد محدود من الرسامين المتمرسين تقدماً كرسامين توضيحيين في مجال الرسوم التخطيطية التي أنعشت بعض المجلات الأسبوعية، مثل "روز اليوسف" و"صباح الخير". وفي بداية الخمسينيات، استفاد الأطفال العرب جميعاً، من المجلة العربية الدورية الرائدة "سندباد"، التي كانت تُكتب بلغة عربية فصحي مبسطة، وتحتوي على بعض الرسوم التوضيحية الملونة، كما هَلَّلُوا بعد ذلك بفترة قصيرة لإصدار مجلة "سمير" المكتوبة باللهجة العامية المصرية، والملونة بالكامل.

واتضح لاحقاً أن عدد الكُتَّاب الذين قابلتهم في بيروت، والذين رَحَّبُوا بالفرصة المتاحة لكتابة قصة للأطفال، كان أكبر نسبياً من الفنانين الذين كانوا راغبين في تقديم رسوم توضيحية لكتاب أطفال. فمهمة الرسم التوضيحي كانت مرتبطة بالفن التجاري عامة، وكان يُنظر إليها على أنها أقل مرتبة من مهنة الرسام. وأكثر من ذلك، كان من النادر العثور على شخص يميز الاختلاف الملحوظ بين مسؤوليات المدير الفني، ومهنة الرسام التوضيحي، وبالتالي، كان هناك إجماع عام على فكرة أن أي شخص يتم توظيفه لتوضيح أي مادة مطبوعة، يستطيع أن يكون ملائماً لوظيفة المدير الفني. وفي ظل غياب التعريف الدقيق للميادين المتنوعة، تُركت مهمة تصوّر وتنسيق العناصر النصية والبصرية إمّا إلى المطبعة، وإمّا إلى مَنْ يقوم بالرسم التوضيحي أياً يكن. لم يكن بين الكُتَّاب المحتملين الذين تحدثت معهم مَنْ كان مختصاً بالكتابة في هذا المجال، وكنت راغباً في الابتعاد عن الأسلوب التعليمي والنمط الإرشادي المكتوب بلغة تقليدية تقدّم القليل لإثارة فضول الطفل. كما كنت مقتنعاً بأن أفضل رواة قصص الأطفال الممكنين ليسوا بالضرورة بين المؤلفين المعروفين، بل من ذلك الجيل الأصغر من الشعراء، ومؤلفي القصص الخيالية الذين كانوا أنفسهم شعراء في دواخلهم.

عبد القادر أرناؤوط، الفنان السوري والصديق المقرب منذ أيام دراستنا معاً في أكاديمية روما، كان شاعراً أيضاً، وفناناً تشكيلياً مبدعاً، وراوي حكايات استثنائياً، وقارئاً جيداً جداً بأربع لغات، وفوق ذلك كله، كان فنه مثل شعره يعزز نظرة الطفل إلى العالم. وضعت اسمه في رأس قائمة الفنانين الذين اخترتهم، وأوصيت به كي يضع الرسوم التوضيحية لقصتين من القصص التي تمت الموافقة عليها. وفكرت في تخصيص بعض الوقت لأمضيه معه في دمشق ما إن أعود إلى بيروت، وأن أجد سبلاً له كي يكتب ويرسم الصور التوضيحية للقصص التي يؤلفها، فضلاً عن قصص الأطفال الألبانية التي ترعرع عليها، والتي رواها لي.

كنت أشجع الكُتَّاب، خلال لقاءاتي معهم، على أن يجربوا رسم قصصهم بأنفسهم. وكنت دائماً أطرح موضوع الروائي أنطوان دو سان أكرزوبيري الذي لم يتعلم الرسم التوضيحي، ومع ذلك أثبتت الرسوم الساحرة التي وضعها في كتابه "الأمير الصغير" أنها رسوم خالدة. وقد حدثت بعض الشابات والشباب الذين لم يرسموا شيئاً مذ كانوا أطفالاً، والذين أحسست أنهم يمتلكون إحساساً بصرياً، عن افتقارنا إلى رسامين عرب معروفين، ودعوتهم إلى التفكير في توضيح القصص التي سيكتبونها، برسم يرسمونها بأنفسهم. وكنت أوضح للمشاركين المحتملين، في كل لقاء، أن أي عمل قد يصدر عنه مرهون بموافقة لجنة التحرير، وأنه يجب التوصل إلى اتفاق مع الناشر، وليس معي شخصياً.

قابلت العديد من أولئك الكُتَّاب والرسامين التوضيحيين، لأول مرة، في اللقاءات الاجتماعية في بيوت الأصدقاء، أو في افتتاح المعارض الفنية في الصالات التي اعتدت ارتيادها. وجرت أغلب التكاليفات بالعمل في مقهى "سترناند كافيه" في شارع الحمراء، قريباً جداً من شقتي. وبعد قراءة نماذج من كتاباتهم، كان التحدث

تصميم الشعار واقتراح اسم لدار

النشر

استوحيت شعار دار النشر الجديدة من رسم خطه طفل فلسطيني. فقد أعدت تحديد خطوط الرسم الذي ظهر في الأصل على غلاف أول كتاب على الإطلاق صدر عن رسوم الأطفال الفلسطينيين، والذي كان من تأليف منى سعودي. فكرت في أنني لن أجد صورة شعرية أفضل من صورة هذا الطفل الشاعرية، التي اختصرت ببضع خطوط شديدة الإيجاز شكلاً مجرداً لطائر يمد جناحيه لاحتضان الشمس. وأول تعليق سمعته عن الشعار أتى على شكل دعابة. فقد قال أحد أعضاء لجنة التحرير: "هل أحضرنك هذه المسافة كلها من أميركا كي تنسخ رسمة طفل؟" فضحك جميع الحاضرين. وبالنسبة إلى اسم الدار، والذي كنت أتصور أن يكون ملائماً للشعار، فقد فكرت في أنه يجب أن يعكس الاعتزاز بما يعنيه تأسيس أول دار نشر لكتب الأطفال الفلسطينيين عند هذا المنعطف من تاريخنا الوطني، كما أردت في الوقت نفسه، أن يجسد الاسم معنى تمكين الأطفال الذين أودعنا في أيديهم مستقبل كفاحنا، ولهذا كان الاسم الذي اقترحت أن يظهر تحت الشعار هو "دار المستقبل للأطفال". وعلى الفور أعلن نبيل مبتهجاً أنه يمكننا أن نطلب من محمود درويش أن يكتب بعض الأبيات المقفاة ليغنيها الأطفال في مقطع إعلاني. وبعدها راح يفرق بأصابعه في الهواء، ويقلد غناء الأطفال: المستقبل للأطفال، المستقبل للأطفال. ففرق جميع الحاضرين بالضحك.

بعد جدال طويل، تم قبول رسمة الطفل الفلسطيني كشعار لدار النشر، لكن الاسم الذي اقترحته رُفض. وكان الاسم المقترح هو "دار الفتى العربي"، وكنت العضو الوحيد في اللجنة الذي ناقش هذه التسمية، فقد أوضحت أن كلمة العربي تشكل زيادة لا داعي لها. ففي نهاية المطاف ستصدر كتبنا حصراً بلغتنا الأم.

مع كل كاتب، ومراجعة بعض الأعمال الفنية، سواء في المقهى أو في بيته، يستهلك وقتاً. فتقرير أي نوع من الرسم يتلاءم مع أي نمط من النصوص لم يكن مجرد وضع صورة ونص معاً، ذلك بأن نمط الكتابة يجب أن يكون منسجماً مع نمط الرسوم التوضيحية. بالمختصر، رأيت أن مشروعنا الرائد كان مشروعاً تجريبياً، وفكرت أن في إمكاننا تحمّل أخذ بعض الوقت لاستكشاف طريقة جديدة للنظر إلى كتب الأطفال.

فكرت، وعيني على القراء الصغار في مختلف البلاد العربية، في أنه يجب أن نسعى جاهدين لإشراك المواهب الكتابية والبصرية من الدول العربية قدر المستطاع. وقد بدت تلك الطريقة هي الأفضل ليس فقط لتقديم أنماط متعددة من الكتابة تنتج نصوصاً متنوعة، بل كنت أمل أيضاً بأن تنقل تلك السياسة رسالة تضامن فلسطينية عبر أنحاء العالم العربي كافة. أنجزت رسوماً توضيحية لثلاثة كتب، وعلاوة على مسؤولياتي كمدير فني، والتي توليتها خلال إقامتي في بيروت، فقد اخترت قصة من كل سلسلة من السلاسل الثلاث التي وافقت عليها لجنة التحرير. فمن مجموعة الكتب ذات القياس المربع الصغير، اخترت أن أوضح قصة الفتاة والقارب على شاطئ البحر، ومن الكتب ذات القياس المربع الكبير، اخترت قصة عن فتاة صغيرة كانت أميرة متمردة، أما من القصص ذات القياس المتوسط، فاخترت قصة عن شجرة، لكاتب عراقي كتبها بناء على طلبني في أثناء مروره ببيروت. ومع أن أعضاء اللجنة كلهم لم يتفقوا على أن قصة الشجرة جيدة بالنشر، إلا أنني قمت برسم الرسوم التوضيحية لها. وقبل أن أغادر بيروت في ذلك الصيف، عندما طلب مني سمير صايغ صورة رسم توضيحي ليرفقاها مع مقابلة أجراها معي لصحيفة "الأنوار"، أعطيته واحدة من تلك التي رسمتها لذلك الكتاب.





القدس مدينة مولده، والمكان الذي أبصرت فيه فكرته النور لأول مرة. وكنت أمل بأن نشر تلك المقالة في تلك المجلة المحترمة سيُشجع لجنة التحرير على اغتنام فرصة هذا الابتكار، لكن لسوء الحظ، وعلى الرغم من توصيتي في مناسبات متكررة خلال اجتماعاتنا، فإن أحداً لم يول أهمية كبيرة لاستخدام نمط الخط الجديد، والابتكار الطباعي الإبداعي، ولم يكن هناك حتى من يدرك كم أن ذلك يعزز ويميز هوية دار نشرنا.

شكل الكتاب وجودة أوراقه

بينما كان أعضاء لجنة التحرير منشغلين باقتراح أسماء لتعريف سلاسل الكتب الخاصة بمختلف الفئات العمرية، كنت أفكر في كيفية اعتماد الشكل المربع بأبعاد متنوعة تكون ملائمة للسلاسل الثلاث الأولى. وقبل أن أتوجه إلى بيروت، وحتى يومنا هذا، فإن المربع كان، ولا يزال، هو النموذج الإبداعي الذي أشكل عليه العديد من التشكيلات الهندسية في لوحاتي. بيد أن ما حفّزني على اختيار هذا الشكل لكتب الأطفال، لم يكن مجرد انحياز إلى الشكل الفني الخاص بي، إذ بعد دراسة مجموعة كبيرة من منشورات الأطفال باللغة العربية، لاحظت أنها جميعاً تلتزم الشكل المستطيل التقليدي، ولهذا فكرت في أن اتخاذاً كتبنا الشكل المربع سيميز بكل تأكيد منشوراتنا في عالم كتب الأطفال العربية. والأهم من ذلك أن الكتاب المربع الصغير يلائم بشكل رائع جيب الطفل، كما أن الشكل المربع الأكبر سيميز كتابنا بسهولة من الكتب المدرسية الموجودة معه في حقيبة التلميذ.

ونظراً إلى أن المنشورات المربعة تعني خسارة نسبة معينة من الورق تُقُتَطع من البكرة الكبيرة التي تأتي تقليدياً من شركات الورق بأبعاد مستطيلة، فقد اضطررت إلى تدبير طريقة لتوفير تكاليف الورق، وخصوصاً أنني أريد أيضاً أن أحصل على سلسلة من الكتب ملونة بالكامل.

عندما قلت أيضاً إن كلمة فتى ربما تكون عبئاً على أطفالنا، إذ نتوقع منهم أن يتصرفوا كرجال صغار، أو نساء صغيرات، الأمر الذي يسلبهم طفولتهم، قيل لي إن كل طفل عربي يستمتع بتقليد البالغين، وخصوصاً الطفل الفلسطيني. وطبعاً، لم يكن أي منا أخصائياً في علم نفس الطفل، وعندما حاولت القول كم هو مدمر تعزيز هذا النوع من التربية التقليدية، لم يكن هناك من يملك استعداداً لبحث هذه المسألة. علاوة على ذلك، عندما اعترضت على كون كلمة فتى تُنكر نظيرتها المؤنثة فتاة، بينما تظل كلمة أطفال في الاسم الذي اقترحتته كلمة محايدة، تدخل إحسان عباس وأوضح أن كلمة الفتى لغوياً، تعني الصبيان والبناات معاً. وقد وافقه الجميع على كلامه، وهكذا تم اعتماد اسم "دار الفتى العربي".

الطباعة

من أجل القسم الخاص بطباعة الكتب، أردت استخدام حروف طباعة تدعو بساطتها الأطفال إلى القراءة، ويمكن أن يقتصر استخدامها على كتبنا حصراً. وكان فلاديمير تماري، وهو صديقي منذ أيام طفولتي في القدس، والذي بقيت على اتصال دائم معه حتى بعد استقراره في طوكيو، يعمل منذ خمسة أعوام على صقل نمط حرف طباعة عربي مبسط غير مذيّل، استناداً إلى بحوث ميدانية رائدة قام بها على كتابات بخط يد الأطفال. وكان أول منشور اختبر فيه فلاديمير ابتكاره هو كتاب منى سعودي عن رسوم الأطفال الفلسطينيين، الصادر في سنة ١٩٦٩، لكن نمط الخط لم يكن قد أنتج ميكانيكياً، ولهذا كتب كل كلمة في الكتاب بخط يده.

أوضح فلاديمير، في مقالة نشرها في مجلة "شؤون فلسطينية"، في السنة التي كنت فيها في بيروت، الجوانب العملية لابتكاراته الطباعية في إنتاج النمط الذي سمّاه "القدس"، تخليداً لذكرى

لكل قصة. ومن أجل توحيد المواصفات لعمل الطبّاع، وتسهيل عمل الرسّام، كنت أضع علامات واضحة باستخدام قلم الرصاص على النص المطبوع على الآلة الكاتبة، لأشير إلى عدد الأسطر الصحيح الذي سيظهر في كل صفحة. وكنت أقوم بحساب طول النص في كل صفحة لترك مساحة كافية للرسم التوضيحي. ومن أجل إرشاد الرسّامين، كنت أرسم دائماً، تصميماً سريعاً يمثل نوع الصورة المطلوبة في المساحة المخصصة، ويحدد ما إذا كانت الصورة ستظهر على صفحة واحدة أم على امتداد صفحتين متقابلتين. وآخر الأمر، كنت أضيف نموذج الغلاف الأمامي، مع عنوان الكتاب واسم مؤلفه، والغلاف الخلفي مع موقع الشعار ومعلومات عن الناشر. وإذا ما كان لديّ اقتراح محدد لأقدمه إلى الرسّام التوضيحي، فإنني كنت أدونه تحت اسم الكاتب. وما عدا ذلك، كنت أترك الغلاف الأخير فارغاً لأكمّله حين عودتي إلى بيروت.

مغادرة بيروت

خلال الأسبوع الأخير لي في بيروت، كان مطلوباً مني تسليم شقتي، ولم أكن أعلم أين سأعيش بعد عودتي، فوضعت مستنداتي في صندوق وسلمته إلى نبيلة، وطلبت منها أن تحفظه لي. احتوى الصندوق على أوراق الصفحات المطبوعة على الآلة الكاتبة، والمدوّن عليها ملاحظات العائدة إلى ٦٠ قصة تقريباً، تمت الموافقة عليها، ومعها النماذج بالحجم الطبيعي لكل كتاب. كما ضمّ الصندوق الرسوم التوضيحية التي رسمتها للقصص الثلاث التي اخترتها، مع سجل بأسماء الفنانين ومعلومات الاتصال بهم، إذ كنت أتوقع أن أتابع كل واحد منهم بعد عودتي إلى بيروت. قبل رحيلي بعدة أيام، وبينما كنت عائداً إلى شقتي الواقعة في شارع فرعي لشارع الحمراء، رأيت نبيلة برير. كان الاضطراب بادياً عليها

وجدير بالذكر هنا، أنه في ذلك الزمن ما قبل الرقمي، عندما كانت طباعة الأوفست هي وسيلة الطباعة السائدة، فإن جميع الأعمال التحضيرية كانت تتم يدوياً، وكانت الطباعة الملونة تستند إلى ما كان يُعرف باسم الطباعة بأربعة ألوان، والتي يلزم فيها تحضير ألواح منفصلة. لهذا، ومن أجل وضع خطة اقتصادية، كان من الضروري الإعداد المسبق لترتيب أوراق الكتاب بشكل يسمح للصورة الملونة بأن تأتي في صفحة الورق الكبيرة نفسها قبل قصّها. وبالتالي بات تخصيص ورق مغلف جيد، يحفظ كثافة الحبر الملون من دون تخريب الجانب الخلفي من الورقة، بمثل أهمية توفير التكاليف، فقد فكرت في أنه يجب أن يكون في وسع الطفل اقتناء نسخته من الكتاب، وأنه يجب ألا يُمنع الآباء المعسرون من شرائه بسبب سعر لا يستطيعون دفعه. وكنت سعيداً للغاية عندما عثرت على ورق للنص والغلاف ذي نوعية جيدة مصدره تشيكوسلوفاكيا، حيث كانت كتب الأطفال الملونة مزدهرة منذ عقود، وكان سعر ذلك الورق أرخص كثيراً من سعر أي ورق آخر مستورد من أوروبا الشرقية.

تصميم القصص

كي تتسع الصفحات القليلة، التي يتكون منها كتاب موضّح بالرسوم، لنص القصة، مع السماح لهذه الصفحات بأن تتنفس بحرية، أوضحت للكتاب المحتمّلين، وأعضاء لجنة التحرير، أن عدد كلمات القصة يجب ألا يتجاوز حداً معيناً. وعقب كل اجتماع تحريري كانت تتم فيه مناقشة القصص والموافقة عليها، كانت نبيلة تزوّدني بنسخة مكتوبة على الآلة الكاتبة لكل قصة بعد تحريرها لغوياً.

ولدى عودتي إلى شقتي حاملاً في يدي النص المتفق عليه، مع النموذج بالحجم الطبيعي الفارغ، مطوياً ومدبّساً ومقصوصاً، كنت أبدأ عملي التحضيري على التصميم العام

شعبنا، والداعمين الأميركيين، من أجل زيارة أبو عمار لواشنطن في تشرين الثاني/نوفمبر، والتي كان مقرراً أن يلقي فيها خطاباً في الجمعية العامة في الأمم المتحدة. طُلب مني أن أكون المصمم الفني للحملة الترويجية، وكان حاتم الحسيني الذي كان يعمل في مكتب جامعة الدول العربية في واشنطن، هو المنسق مع نبيل.

بدا نبيل مشغولاً جداً خلال زيارته القصيرة، مثلما هي حاله دائماً، ولم نتطرق إلى موضوع عودتي إلى بيروت لمواصلة عملي. كنت أمل بأن أفتح الموضوع معه لدى عودته من ولاية ميتشيغان، حيث ذهب للالتقاء بزعماء الجالية العربية - الأميركية، لكن لسوء الحظ لم نلتق ثانية، فقد أخبرني حاتم أن نبيل لن يتمكن من التوقف في واشنطن وهو في طريق عودته إلى بيروت.

كان هناك في الوقت نفسه أمور أكثر أهمية على المحك. فولاتي للنضال، وحماسي لزيارة أبو عمار المقبلة، جعلاني أغرق بكل إخلاص في مهمة تصور وتصميم منتجات الحملة. وقد تضمنت تلك المنتجات ملصقات، وأزراراً، وقمصاناً، وملصقات للسيارات، مع كتيبات ومنشورات أخرى، وجميعها حمل شعاراً يصور، داخل مربع، علماً مرفرفاً بالألوان الأربعة، جرى تشكيل اللون الأبيض المركزي فيها على شكل حمامة محلقة.

في نهاية ذلك اليوم الخريفي الذي شهد الظهور المثير لياسر عرفات في الأمم المتحدة، كنت بين حشد المدعويين إلى حفل استقبال جرى داخل مباني الأمم المتحدة، وسط إجراءات أمنية استثنائية مشددة. رؤساء دول، ومدربون في الأمم المتحدة، وسفراء عرب ودوليون، وكبار أعضاء الجالية الفلسطينية - الأميركية أتوا من جميع أنحاء الولايات المتحدة، واصطفوا لمصافحة القائد الفلسطيني.

كان نبيل واقفاً على يمين عرفات ويقوم بتعريفه بالمصافحين. وعندما أتى دوري، قدّمني بأسلوبه المنمق المعتاد، وقال شعراً في

بعض الشيء، وقالت أنها كانت تبحث عني، ثم سألتني: "عندما دعاك نبيل إلى القدوم إلى بيروت، هل وقعت عقداً معه بشأن منصبك؟" قلت "ولو! طبعاً لا." فأخبرتني: "اليوم وقع نبيل عقداً مع اللباد." أخبرتها أن هذا مستحيل. عندها أخرجت من حقيبة يدها نسخة من العقد، وأرثني إياها. استطعت أن أقرأ اسم اللباد فقط، ولم أكن بحاجة إلى قراءة المزيد. لكن نبيلة التي تعرف بدقة الراتب الشهري الذي كنت أتقاضاه، أشارت إلى الفارق الكبير في هذا البند، وقرأت قيمة المبلغ بصوت عالٍ، ثم أشارت إلى فقرة تنص على أن دار الفتى ستغطي نفقات السفر كلها بين بيروت والقاهرة.

سألت نبيلة أين يمكنني أن ألتقي نبيل قبل المغادرة، فأخبرتني أنه كان يدير ورشة عمل، أو ندوة، تضم مجموعة من رجال الأعمال العرب في فندق في الجبل، وأعطتني اسم الفندق. شكرتها، ووعدتها بأنني لن أنطق بكلمة عن معرفتي بأمر العقد الذي وقّعه، ما لم يطرحه نبيل بنفسه.

في اليوم التالي ذهبت إلى فندق الجبل باحثاً عن نبيل. وقد تفاجأ عندما رأيته هناك، وكعادته كان يبدو في عجلة من أمره. أخبرته أنني سلمت عملي والمستندات إلى نبيلة، وأني أتيت لأودعه قبل عودتي إلى الولايات المتحدة. شكرني وتمنى لي بلطف رحلة موفقة. سألته "متى يمكنني العودة لمواصلة عملي بعد استلام البطاقة الخضراء؟" فقال: "سأعلمك في حينه." وعندما بدأت أمشي بعيداً، ناداني وسألني إن كنت أستطيع أن أرسل إليه الرسوم التوضيحية لثلاثة كتب إضافية كنت أخطط للقيام برسمها لدى عودتي إلى بيروت. فسألته، "بهذه السرعة؟" فأجابني بشيء من قبيل: "أنت تعلم، سيغطي ذلك تكاليف سفرك ذهاباً وإياباً." انقضى أكثر من ثلاثة أشهر ولم يتصل نبيل

قط بي، لكنه في أوائل الخريف، قدّم إلى واشنطن، فالتقينا معاً مع مجموعة من الناشطين الفلسطينيين، لمعرفة كيف نحشد أبناء

وقال ما لم أكن أتوقعه منه، ولا من أي شخص عملت معه في لجنة تحرير "دار الفتى العربي". لا أتذكر بدقة كلماته، لكنها كانت شيئاً من قبيل: "اسمح لي بأن أقول لك بكل صدق إن الكتب التي صممتها لم يصدر ما يعادلها. وحتى الشكل المربع الذي اعتمدته تم التخلي عنه، وصار المشروع مثله مثل أي مشروع تجاري."

لم أكن أعرف إحسان عباس بما يكفي لأحكم إن كان يعني ما يقول، أم إنه كان ببساطة يحاول أن يخفف جراحي عندما أدرك عمق الألم الذي أحسست به، لكنني شعرت بالارتياح، لأنه بعد انتظار طويل، ها هو عالم باحث أكن له الاحترام كله، امتلك من الشجاعة والنزاهة ما جعله يعترف بعمل جيد تم إنجازه.

خلال عقد من الزمن، علمت أن نبيلة برير، الصديقة الأكثر إخلاصاً التي شعرت بالاعتزاز للعمل معها، تركت "دار الفتى العربي"، والتحقّت باليونيسف وشاركت في أعمال الإغاثة في مخيمات اللاجئين المحاصرة التي كانت تتعرض للهجوم يومياً. وعلمت أنها أصبحت أمّاً لفتاة صغيرة، وأنه في أحد صباحات كانون الأول/ديسمبر الباردة، أوقف مسلحون سيارة الأجرة الجماعية التي كانت تقلّها إلى عملها، وسحبوها خارج السيارة، ثم أطلقوا النار عليها، وأردوها قتيلة. سقط جسد نبيلة في شارع بعيد جداً عن المكان الذي رأيته واقفة فيه آخر مرة. ■

مديح موهبتي، من قبيل: "الفنان الذي كان خلف دار نشرنا للأطفال." فسأل أبو عمار: "يالله، متى تخطط للعودة إلى بيروت؟" فأجبت: "عندما يقرر الدكتور." ابتسم نبيل ابتسامة عريضة، وانشغل بتقديم الشخص القادم بعدي.

بوح

بعد عام أو اثنين، دُعيت إلى مؤتمر في جامعة برينستون. وفي حفل الاستقبال، رأيت إحسان عباس بين الحضور. أخبرني أحد الزملاء أنه كان باحثاً زائراً في برينستون لعام واحد. وبينما كان الجميع يتجمعون حوله، حاولت تجنبه لأنني لم أرغب في إعادة فتح الجروح التي تمكنت من كتمها بمرور الوقت، فقد كنت أجاهد لأتخلص من ذكريات مؤلمة محملة بالإحساس بالذنب تجاه أطفال المخيم الذين تركتهم من دون تقديم أي تفسير. وفقط بعد مرور عدة أعوام، خلصت إلى أنه لو نجا أولئك الصبيان والبنات من الحرب في لبنان، فلا بد من أنهم قد أصبحوا رجالاً ونساء، لكن بالنسبة إليّ كل واحد منهم ظل الطفل الذي عرفته في سنة ١٩٧٤. وما إن رأني إحسان عباس، حتى انسحب من بين الجموع وأتى ليسلم عليّ، وتعانقنا.

قبل انتهاء محادثة ممتعة وحيوية عن موضوع المؤتمر، نظر الرجل الوقور في عينيّ